إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الخامسة عشرة ـ العدد السابع والخمسون ـ ربيع ١٤٠٤ش/ آذار ٢٠٢٥م
https://doi.org/10.82401/roc.2025.1215030
صص ٨٢ ـ ٥٩

دراسة المضامين الاجتماعية والثقافية فى أعمال يوسف زيدان؛ رواية "فردقان" نموذجا

فاطمة كريمى تركى*

الملخص

الاهتمـــام بالقضايا التاريخية والثقافية والاجتماعية يســـاهم فى بناء مجتمع حيوى هـــادف. ومن أبرز مهام الأدب تبنى مثل هـــذا المنهج. ومن بين القصص المهمة التى يمكن دراســـتها من هذا المنظور رواية "فردقان" للمؤرخ والأستاذ الجامعى والكاتب المصرى المعاصر "يوســـف زيدان". هذه الرواية الأدبية-التاريخية تسعى إلى تصوير حياة العالم والفيلسوف الإيرانى الكبير ابن سينا حينما كان معتقلا فى قلعة "فردقان". تهدف هذه الدراســـة، باســـتخدام المنهج الوصفى - التحليلى، إلى تفســـير وتحليل انعكاس المضامين الثقافية والاجتماعية فى أعمال يوســـف زيدان، مع التركيز على روايـــة فردقان. ومن أبرز النتائج التى توصل إليها البحث أن يوســـف زيدان يظهر فى أعماله اهتمامـــا عميقا بالقضايا الثقافية والاجتماعيـــة، حيث تجلّى هذا الأمر بوضوح فى روايته جوانتانامو (التى تســـرد قصة ســـجن صحفى برىء)، لكنه ظهر بشكل أوسع فى رواية فردقان بسبب بعدها التاريخى والاجتماعى والثقافى البارز. تعكس فردقان ثقافة ومجتمع إيران فى العصر الغزنوى من خلال واقعية صارخة تُقدّم الحقائق كما هى.

الكلمات الدليلية: يوسف زيدان، رواية فردقان، الثقافة، المجتمع، ابن سينا.

---

*. أستاذة مساعدة بجامعة پيام نور، طهران، إيران Fatemehkarimi85@pnu.ac.ir
تاريخ الاستلام: ١٤٤٧/٠٢/٢٢ق تاريخ القبول: ١٤٤٧/٠٥/٢٧ق

المقدّمة

ظهر الاهتمام بالثقافة والعادات والتقاليد فى القرن التاسع عشر فى فرنسا تحت تأثير نظريات مفكرين مثل مدام دو ستايل وهيبوليت تين. (علوى زاده، ١٣٩٣ش: ١٥٠) فى مجال النقد الثقافى-الاجتماعى للنصوص الأدبية، وُجدت وجهات نظر متعددة ومتنوعة، من بينها منهج كلود دوشيه الذى يركز بشكل أكبر على النص نفسه. هذا الأسلوب من النقد والتحليل الأدبى يبحث ويكشف عن الحقائق الاجتماعية من خلال قراءة النص الأدبى. أما النقد التاريخى الاجتماعى، فهو يميل أكثر إلى تحليل السلوكيات الاجتماعية، ويبحث عن العلامات والظواهر الاجتماعية الكامنة فى النص الأدبى. (ناجى، ٢٠٠٧م: ١٧)

بما أن الأدب الفرنسى المعاصر تأثر بشكل كبير بالتحولات الاجتماعية، فقد سعى عدد كبير من الكتّاب إلى تأليف أعمال مستوحاة من الواقع الاجتماعى. ومن بين هؤلاء بيير لوميتر الذى كتب فى عمله الشهير "نلقاك فى العالم الآخر" قصة متأثرة بالحرب العالمية الأولى، مُسلطًا الضوء على تداعيات هذا الحدث التاريخى المهم على الحياة الاجتماعية فى فرنسا. (حميدى، ٢٠١٥م: ٤٦)

يتمتع الأدب القصصى المصرى بمكانة خاصة بين الدول الناطقة بالعربية. ويعد نجيب محفوظ، النجم البارز فى الأدب المصرى والحائز على جائزة نوبل، شخصية معروفة منذ سنوات بين القراء الناطقين بالفارسية، حيث تُرجمت معظم أعماله إلى الفارسية. ومع نشر هذه المقالة، يتعرف القارئ الفارسى على كاتب بارز آخر من هذا البلد.

ومن بين القصص المهمة التى يمكن دراستها من هذا المنظور رواية "فردقان" للكاتب المصرى الشهير يوسف زيدان، الأستاذ الجامعى والروائى المعروف. تحاول هذه الرواية الأدبية-التاريخية إعادة تصوير حياة العالم والفيلسوف الإيرانى الكبير ابن سينا. كان ابن سينا عبقريا أتقن تقريبًا جميع علوم عصره، وكان من أولئک الذين عاشوا حياة قصيرة لكن إنجازاته ما زالت خالدة. (علوى زاده، ١٣٩٣ش: ١٥٧)

أسئلة البحث

يمكن اعتبار رواية فرقدان مصدرًا غنيا ومناسبًا لدراسة المناهج الثقافية والاجتماعية لإيران فى العصر الغزنوى. أما السؤال الرئيسى لهذا البحث فهو:

١. ما هى أبرز القضايا الثقافية والاجتماعية المنعكسة فى رواية "فردقان"؟
٢. يهدف هذا البحث إلى دراسة وتفسير المضامين الثقافية والاجتماعية التى تجلّت فى رواية "فردقان".

فرضيات البحث

تفترض هذه الدراسة أن يوسف زيدان فى روايته "فردقان" – التى اتخذت من قلعة تاريخية عنوانا لها – قد وظف هذه القلعة كرمز مركزى لتمثيل أبرز القضايا الثقافية والاجتماعية. وذلک من خلال تجسيد إشكالية الهوية الجمعية فى مواجهة "الآخر" وإبراز وضع المرأة فى فضاء الوسطى بين التقليد والحداثة.

خلفية البحث

توجد العديد من الكتب والمقالات حول الثقافة والعادات والتقاليد الإيرانية، معظمها كُتب ونُشر فى إطار أدب الرحلات، والتى سيتم الاستفادة منها فى صياغة الإطار العام للبحث، مع تجنب ذكرها هنا تفصيلاً.

أما بالنسبة للنصوص الأدبية التخيلية عن ابن سينا، فقد كُتبت بعض الأعمال مثل رواية "الرئيس" لمحمد العدوى، وقصة "طريق أصفهان: سيرة ابن سينا" للكاتب الفرنسى جيلبر سينويه، وهى أعمال تستحق الاهتمام البحثى.

إلا أنه لا توجد دراسات مستقلة تتناول رواية "فردقان" واعتقال الشيخ الرئيس (ابن سينا)، أو تحلل أسلوب ومضامين الرواية بشكل مُفصّل. مع ذلک، هناک بعض المقالات العامة التى ناقشت هذه الرواية وسيتم الاستناد إليها فى هذا البحث، مثل:

- فردقان ليوسف زيدان: رواية ممتعة لا تقول شيئاً"، مقالة للكاتب موسى إبراهيم، مجلة القدس العربى، ٢٠٢٠.

- رواية فردقان ليوسف زيدان: راوٍ متسلط واسم طاغٍ"، مقالة للكاتب جان نايف هاشم، مجلة الرصيف الإلكترونية، ٢٠٢٠.

نظراً لابتكارية موضوع المنهج الثقافي والاجتماعى وأهميته من المنظور الأدبى، وبالإضافة إلى حقيقة أنه لم يتم حتى الآن إجراء بحث شامل ومنهجى فى مجال تحليل القضايا الاجتماعية والثقافية لرواية "فردقان"، فإن الحاجة إلى هذا النوع من الأبحاث تبدو واضحة فى الدراسات الأدبية وحتى التاريخية والاجتماعية.

يوسف محمد أحمد زيدان (مواليد ١٩٥٨ - سوهاج، مصر)

يوسف محمد أحمد زيدان كاتبٌ، مؤرخٌ، وباحثٌ مصرى متخصص فى مجال الآثار القديمة للدول العربية والعلوم المرتبطة بها. يعرف زيدان بعمله الأكاديمى والثقافى، وتركّز أبحاثه على التاريخ الإسلامى والعربى، بالإضافة إلى دراساته فى التراث الثقافى والحضارى للمنطقة.

وُلِدَ يوسف زيدان فى ٣٠ يونيو ١٩٥٨م بمدينة سوهاج (تحديدًا فى قرية ساقلتة) بمصر. وفى سنوات طفولته المبكرة، انتقل مع جدّه إلى مدينة الإسكندرية، حيث نشأ وترعرع فى هذه المدينة الساحلية الكبرى المطلة على البحر المتوسط. هناك، تلقى تعليمه فى مدارس الإسكندرية، و هكذا شكلت بداية مسيرته الفكرية والأكاديمية.

التحق يوسف زيدان بقسم الفلسفة فى جامعة الإسكندرية، وحصل على درجة البكالوريوس فى الفلسفة منها عام ١٩٨٠م.

ركزت دراساته العليا على التصوف والأسس الفلسفية له. حصل على درجة الدكتوراه عام ١٩٨٩م فى الفلسفة الإسلامية، وكان عنوان أطروحته: «المنهج القادرى فى الفكر والمنهجية والسلوك: دراسة وتحقيق ديوان عبدالقادر الجيلانى».

أسس قسم المخطوطات فى مكتبة الإسكندرية عام ١٩٩٤م، وتولى رئاسته. (نجاح ٢٠١٨م: ٣٧)

يعتبر يوسف زيدان خبيرًا متخصصًا فى الدراسات العربية والإسلامية، وهو مدير مركز المخطوطات والمتحف، كما يدير أعمال التوثيق والبحث والحفظ للتراث المكتوب.

هو أستاذ جامعى وصحفى وكاتب غزير الإنتاج بأكثر من خمسين كتابًا فى مجالات متعددة. كان دراسة المخطوطات العربية والإسلامية شغفه الرئيسى، حيث شكّلت فهرستها وتحقيقها ونشر النصوص الأصلية للآثار القديمة والمخطوطة جُزءًا أساسيا من أعماله.

عمل مستشارًا فى مجال الحفاظ على التراث العربى فى عدة مؤسسات دولية مثل اليونسكو والإسكوا وجامعة الدول العربية. وقام بإدارة عدد من المشاريع تهدف إلى تحديد معالم التراث وحماية المخطوطات العربية. (الأعظمى الندوى، ٢٠١٧م: ١٥)

ألّف هذا المفكر العربى عددا من الكتب والبحوث حول الفكر الاسلامى والتصوف كما أنه نشر بشكل دورى مقالات فى الصحف العربية والمصرية. ومن أبرز أعماله الأدبية رواية "عزازيل"، حيث استخدم فيها لغةً تاريخيةً مميزةً واعتمد على نصوصٍ قديمةٍ مترجمةٍ. ومن أعماله الأخرى: "ظل الأفعى"، "فردقان"، "النبطى"، و"جونتنامو". (محمود، ٢٠٢٠م: ٣٦)

نظرة إلى رواية "فردقان"

قام يوسف زيدان بدراساتٍ ميدانيةٍ واسعةٍ بهدف توثيق الآثار القديمة فى العالم العربى، ومن بين أبرز مساهماته فى مجال الأدب، كتابة رواية "عزازيل". تتناول هذه الروايةُ قصة نابعة من ترجمة مخطوطاتٍ جلديةٍ قديمةٍ كُتبت بالسريانية، وكانت مدفونةً لقرونٍ طويلةٍ فى منطقةٍ تاريخيةٍ بالقرب من مدينة حلب السورية. وتندرج روايات "ظل الأفعى" و"النبطى" و"فردقان" ضمن نتاجه الأدبى المتميز. وفى هذا السياق، تكتسب رواية فردقان مكانتها من عدّة جوانب، حيث عُولجت فيها قضايا فكرية وإنسانية بأسلوبٍ يتّسم بالوضوح والانسجام ويتميز بالبعد عن التكلّف. وبذلک تُعَدّ هذه الرواية عملاً أدبيا قيمًا يستحقّ التقدير والدراسة. (الأعظمى الندوى، ٢٠١٧م: ١٧)

تصور الرواية اعتقال ابن سينا فى قلعة فردقان – وهى قلعة مشهورة من نواحى جراء لهمذان (الحموى، ١٩٩٥، ج٤: ٢٤٧) – ولكن ليست الرواية مجرد سرد حياة ابن سينا فى الحبس فى هذه القلعة بل تشتمل على كثير من المعلومات التاريخية والجغرافية

والاجتماعية والسياسية والثقافية فى ذلک العصر.

يجمع الكاتب فى هذه الرواية بسرد محكم بين سيرة حياة ابن سينا والعديد من القضايا المرتبطة بها، حيث يطرح مسائل علمية وتاريخية وجغرافية، ويناقش الصراعات الدينية والسياسية، كما يبين الموضوعات الأخرى كقضية الرق، وانتشار الأمراض، وكيفية الصحة العامة فى المجتمع ومكانة العلماء والنساء كما يصف سلوكيات القادة والملوک كالسلطان محمود الغزنوى مع العلماء والكتاب، وما فعله فى حملاته على الهند وغير ذلک.

يوسف زيدان، الذى يمتلک معرفة تاريخية وفلسفية وطبية واسعة، يعرّف بأعمال وأفكار ابن سينا بشكل جيد، ويشرح بوصف مختلف الخلافات السياسية، والأوضاع المضطربة للدول الإسلامية فى تلک الفترة المضطربة من الخلافة العباسية، ويصور السلوک الوحشى للسلطان محمود الغزنوى سواء فى الهند أو فى الدول الإسلامية وفى مواجهة الشيعة والمعتزلة دون أى تحيز. (علوى زاده، ١٣٩٣ش: ١٥٤)

تقدّم رواية فردقان معالجةً شاملةً لشخصية ابن سينا، متناولةً أبعادها الأدبية والتاريخية والفلسفية، مع التركيز على إسهاماته المتعدّدة فى الطبّ والفلسفة والرياضيات والفلک، حيث ترک تراثًا علميا ضخمًا يكفى لتأسيس مكتبةٍ مستقلة.

تدور أحداث الرواية حول الفترة التى قضاها ابن سينا سجينًا خلف أسوار قلعة "فردقان"، وكيف أثرت هذه المرحلة على حياته، أفكاره، فلسفته، وشخصيته...كما نجح زيدان فى روايته "فردقان" فى تصوير تاريخ إيران خلال فترة الحكم الغزنوى، الجوانب الثقافية والاجتماعية و المعالم الجغرافية و أنماط حكم الحكام فى تلک الحقبة. (الأعظمى الندوى، ٢٠١٧م: ١٧)

يظهر هذا العرض الشامل مدى اتساع معرفة يوسف زيدان فى مختلف المجالات، بدءاً من الطب والعلوم وصولاً إلى الشؤون السياسية التاريخية والدينية والجغرافية. فقد برع الكاتب فى وصف المعالم الجغرافية بدقة متناهية، لدرجة تخلق لدى القارئ المطلع على المنطقة شعوراً وكأنه يسير فيها فعلياً. ويتجلى هذا واضحاً عند وصفه لرحلة ابن سينا من الرى إلى قزوين، حيث يقدم وصفاً دقيقاً لموقع طهران الحالى وسلسلة جبال

ألـــبرز، مما يدل على إلمامه التاريخى العميق وقدرته الوصفية الاســـتثنائية. إلى جانب عنصر المكان، يحظى عنصر الزمان بمكانة خاصة فـــى هذه الرواية. كما أن الأحداث والشخصيات التى تظهر فى القصة تتميز بواقعيتها ومصداقيتها التاريخية.

فالروايةُ تعدّ من حيث أســـلوبها السردى، نموذجًا أدبيا فريدًا يمكن اعتباره من أبرز الإبداعات الروائية فى الأدب العربى الحديث. ويبرز هذا العمل جوانب خفية من حياة ابن سينا، من خلال الجمع بين الحقائق التاريخية والخيال الإبداعى، وتقديمها للقارئ فى إطارٍ متماسكٍ وسهل التلقّى.

أسلوب يوسف زيدان فى معالجة القضايا الثقافية

كتب يوسف زيدان هذه الرواية التاريخية التى تقترب فى معظمها من الواقع بخياله الخصب ومعرفته التاريخية الواســـعة، ومن البديهى أن الروايـــة التاريخية تختلف عن الكتابـــة التاريخية البحتة، إذ لا يمكن للرواية أن تســـتغنى عن عنصر الخيال – وهو ما أتقنه زيدان بمهارة حيث أضاف شـــخصيات خيالية مثل "المزدوج"، "سندس"، "روان" و"ماهتاب" ليحول الأحـــداث التاريخية الجافة إلى فضاء روائى حيوى. تتكون رواية "فردقان" من ســـبعة فصول وهى المزدوج، الشيخ الرســـتاق، روان، ماهيار، ماهتاب، سندس وحى بن يقظان.

نلاحظ فى الرواية سمتين رئيســـيتين هما الســـيرة الذاتية والرواية التاريخية. يمكن ملاحظة الدمج غير المشروط بين قالبَى السرد القصصى والتاريخى فى الرواية التاريخية. وتشكل رواية "فردقان" نموذجاً لهذا المزج بين عنصرى الأدب والتاريخ، حيث تعرض الوقائع التاريخية عبر قالب روائى سردى. (نامور مطلق، ١٣٨٨ش: ١٣٨)

يتناول زيدان فى روايته الوضع السياسى المضطرب فى إيران آنذاك، بما فى ذلك صراعات الحكام على الســـلطة والثروة، ويظهر كيف أثـــرت هذه الظروف على حياة العلماء مثل ابن ســـينا، وكيف أدت إلى تغير أوضاعهم. هذا السرد التاريخى يتناول فى جوهره أهدافًـــا أعمق من مجرد الأحداث التاريخية، ليركز على تفاصيل الحياة اليومية والاجتماعية للعامة من النـــاس – اولئک الذين غالبًا ما يكونون «الأبطال الحقيقيين

للروايات، والشـــخصيات التى يختارها الكاتب لتسليط الضوء على الجانب الإنسانى وســـط الأحداث السياســـية والعســـكرية المصيرية. حيث تُدرج الوقائع والأحداث التاريخية ضمن سياق السرد المعروف.» (ميرصادقى، ١٣٨٠ش: ١٣٢-١٣٣)

انعكاس المضامين الثقافية فى رواية "فردقان"

هناك مضامين ثقافية واجتماعية عديدة فى رواية "فردقان" ليوســـف زيدان. يمكن الاشارة إلى شخصية ابن سينا العلمية والفلسفية، وضع العلم ومكانة العلماء فى ايران خلال عهد ابن ســـينا، وضع الصحة العامة فى المجتمع، مكانة المرأة ودورها، انتشـــار الفقر والفســـاد والفحشـــاء فى المجتمع و... . تتناول هذه الدراسة بعض هذه المضامين بصورة مفصلة.

التركيز على شخصية ابن سينا العلمية فى رواية "فردقان"

يَظهر ابن سينا فى رواية "فردقان" ليوسف زيدان كأحد الأعلام العلمية التى تحمل رؤية وســـيعة جمعت بين الفلسفة والطب والعلوم العقلية. بما يؤكد أنه لم يكن مجرد عالم، بل مفكرا شاملا انعكس فكره على مختلف الأصعدة.

غير أنّ شـــخصية ابن ســـينا فى فردقان لا تُقدَّم فى إطار السيرة الذاتية التقليدية فحســـب، بل بوصفها نموذجًا ثقافيا يثير إشكاليات متعدّدة. فهو ينتمى إلى فئة العباقرة الذين تجاوزوا عصرهم الزمنى، ممّا جعلـــه عصيا على الفهم لدى معاصريه، حتى إنّهم اتهموه بالزندقة والإلحاد. (إبراهيـــم، ٢٠٢٠م: ١٠٥) وهنا يتجلّى البُعد الثقافى الذى يتناوله زيدان عبر التصوير الأدبى، إذ يعَدّ هذا التصويرُ وسيلةً لفهم معمّقٍ وتقييمٍ لآراء الآخرين تجاه الذات، فضلًا عن تحليل النصوص للكشـــف عن الحقائق أو التحريفات الكامنة فيها، بما يتيح إعادة صياغةٍ واســـتيعابٍ أكثر دقّة للنصّ الأدبى بوصفه انعكاسًا لأفكار الكاتب وتمثلاته الذهنية. وبما أنّ دراسة العادات والتقاليد الإيرانية كانت دائمًا محلّ اهتمامٍ أكاديمى، فإنّ تحليل الصورة المرســـومة للإيرانيين عبر العصور – من خلال شـــخصيةٍ بارزة مثل ابن سينا فى إطار تمثيل "الآخر" أو "الغريب" – أفضى إلى ظهور

نمطٍ جديدٍ من الدراسات البينية التى تجمع بين التاريخ والأدب. (المصدر نفسه: ١٠٦)

وعليه فإنّ منهجَ تحليل الصورة فى الدراسات البينية، القائم على مفاهيم مثل ثنائية الذات والآخر لفهم تصوّرات الآخر، يجد تطبيقًا واضحًا فى رواية فردقان. إذ تكشف الأحكام المسبقة والتصوّرات المشوّهة التى قد تَرِدُ فى النصّ عن أفقٍ نقدى يبرز دور يوسف زيدان فى توظيف الأدب كأداةٍ لمعالجة القضايا الثقافية الكبرى وربطها بالتصوّرات التاريخية والفكرية. (هاشم، ٢٠٢م: ٦٤)

من خلال شخصيته، يوظف زيدان التاريخ العربى لنقد الحاضر ومقارنة عصر الانحطاط بعصر الازدهار يبرز أن مشكلة العالم العربى اليوم ليست فى نقص العلوم، بل فى فقدان روح الابتكار التى جسدها أمثال ابن سينا.

يبرز يوسف زيدان فى رواية "فردقان" بعدا حيويا من أبعاد ابن سينا العلمية، وهو بروعته فى تشخيص الأمراض وعلاجها. من خلال مشاهد مفصلة، يصور زيدان كيف كان ابن سينا يتوصل إلى تشخيص دقيق بالاعتماد على الملاحظة العميقة والمنهج التجريبى وكيف كان يطور وصفات علاجية مبتكرة مستندة إلى خبرته فى علم الأعشاب وتشريح الأجسام. هذا الجانب لا يجسد فقط العبقرية الطبية لابن سينا العالم الايرانى الأصل، بل يخدم أيضا كرمز لحكمة الحضارة الإسلامية فى عصرها الذهبى.

ذاع صيت ابن سينا الطبى إلى درجة أنه عندما يمرض الحكام، كانوا يطلبون استدعاءه إلى البلاط للعلاج. ومن بين هؤلاء الحكام، أبو طاهر شمس الدين حاكم همذان، الذى استدعى ابن سينا للعلاج. اغتنم الشيخ هذه الفرصة وذهب إلى البلاط، حيث سار العلاج بشكل جيد لدرجة أن الحاكم – بعد شفائه – عرض على ابن سينا منصب الوزارة، فقبل الأخير هذا العرض. (صفا، ١٣٩٧ش: ١٠٥)

هذه القضية قد تجلّت أيضًا فى رواية فردقان:

«عندما اعتل حاكم همذان البويهى أبو طاهر شمس الدين وحار الأطّباء فى علاجه، فنصحوه باستدعاء ابن سينا للقصر الأميرى، ففعل ... استجاب ابن سينا واستطاع بالتدبير الغذائى والأدوية اللطيفة أن يشفى الأمير الذى كان ممعوداً، يعانى بشدة من أوجاع المعدة والمعاء، وقد أعجب به حاكمُ همذان فضمه إلى حاشيته المقربين، ثم عرض

عليه أنيتولى الوزارة؛ فأخطأ ابن سينا و قبل بها.» (زيدان، ٢٠١٨م: ٥٦)

يبرز الكاتب يوسف زيدان فى روايته الجانب العلمى إلى جانب الإنسانى والأخلاقى لابن سينا، اذ تصور للقارئ كيفية تشخيص الأمراض وعلاجها، كما يعكس التزامه بقيم الشرف والنبل خلال ممارساته الطبية.

أدخل يوسف زيدان وصف الأمراض فى عمله الأدبى بدقة فائقة تجمع بين العمق العلمى والأسلوب الأدبى المميز. حيث يجسّد مرارة المرض عبر صياغة لغوية بارعة. وبحسب «لا تُبنى أى صورة فنية بمعزل عن الصور الأخرى، بل يستحيل تحقيق ذلک أصلاً، إذ لا يمكن فهم أى صورة – ناهيک عن تشكيلها – دون تفاعلها مع الصور السابقة لها.» (نامور مطلق، ١٣٨٨ش: ١٢٦) لذا فإن تصوير الأمراض وعلاجاتها كما يدّل على البعد العلمى لشخصية ابن سينا وآنذاک يضفى بعدا جماليا على العمل الروائى.

الوضعية الصحية العامة للمجتمع

كما أشير سابقا تطرق زيدان إلى الشخصية العلمية لابن سينا فى رواية "فردقان". بينما يتناول بروعته فى تشخيص الأمراض وعلاجها، تظهر بعض المواضيع الثقافية المرتبطة بهذا السياق. من هذه الموضوعات يمكن الإشارة إلى عدم الاهتمام بالصحة العامة وعدم مراجعة المرضى إلى الطبيب. يظهر هذا الموضوع فى الرواية وأشير إليه بصراحة:

«إنّهم لايحبّون الأطّباء. قد وجدت فيمن فحصتهم ثمانية وسبعين من الأصحاء الّذين لايحتاجون من الطّب، إلّا الأمور العامة واجبة المراعاة لحفظ حال الصحة؛ مثل المواظبة على الاستحمام، وتعريض فراشهم للشّمس، وتنويع الطّعام، ووجدتُ خمسةً يعانون من أمراض حادّة، ولابدّ من المبادرة إلى علاجهم لأن الإهمال قتّال فى حالتهم ... .» (زيدان، ٢٠١٨م: ١٥)

فها هو الجنود لا يحبون الطبيب ويرفضون مراجعته، وبعضهم يعانى من أمراض حادة، بينما كان عليهم جميعاً مراعاة الحد الأدنى من متطلبات الصحة العامة مثل

الاستحمام المنتظم وتنويع الغذاء وغير ذلک.

من القضايا التى تجســـدت فى الرواية للتعبير عن الوضعيـــة الصحية المتدنية فى المجتمع، انتشـــار أنواع مختلفة من الأمراض والأوبئة. حيث استغل يوسف زيدان ذكر هذه الأمراض وطرق معالجتها على يد ابن سينا، لإبراز أمرين جوهريين؛ الأول كشف الحالة الثقافية والاجتماعية المنحطة التى كانت ســـائدة فى ذلک الوقت. والثانى وضع البرهان الجلى والتأكيد على مكانة ابن سينا العلمية والإبداعية فى ميدان الطب، مُظهرا لنا كيف أضحى علمه نورا ينير ظلمات الجهل والمرض.

من الأمراض التى تأتى متكررة فى هذه الرواية وكما يبدو كانت شـــائعة فى تلک الحقبة مرض "القولنج" وأشير فى الرواية إلى معاناة الكثيرين منه فى ذلک المجتمع:

«وجماعة أكبر عدداً، وجدهم يعانون القولنج البارد ... .» (المصدر نفسه : ١٥)

برأيه بعض الأطعمة يؤدى إلى تفاقم مرض القولنج:

«تناول الفالوذج قد يهيج أوجاع القولنج ... .» (المصدر نفسه: ١٨)

ويصف هذا المرض بقوله:

«أمّا القولنج فهو ألم معوى يعسر معه الخروج ما يخرج من الثُّفْل؛ فيعانى المريض من الإمساک ... .» (المصدر نفسه: ٢٠)

وينذر بأخطاره اذا لم يتم العلاج ويذكر أعراضه وأخطاره قائلا:

«القولنج إذا استدامت عِلته، يضعف استمراؤه للطعام فلا يلتذ بشـــيء منه، ويعاف الدسومات والحلاوات، وهذه الأعراض قد تظهر عند ابتداء القولنج، ثمّ تمتد معه وتشتد مع اشتداده واستحكامه، وتقترن بها أعراض أخرى مختلفة.» (المصدر نفسه: ٢٥)

هذه الصور للأمراض الشائعة فى عهد ابن سينا، تكشف عن إهمال القواعد الصحية فى ثكنات ذلک العصر.

يوضح يوسف زيدان من خلال هذه الأمثلة العلمية التزام ابن سينا بالبحث الدقيق، مهارته الطبية، وأخلاقياته المهنية، حيث تُبرز هذه الحالات العلمية شـــخصية ابن سينا كعـــالم وطبيب رائد فى عصـــره. كل هذه الأمثلة تظهر تفوق ابن ســـينا العلمى ونهجه المنهجى فى التشخيص والعلاج، كما يعكس الأبعاد الثقافية آنذاک فى المجتمع، بما يبرز

التحديات التى واجهها الأطباء.

وضع العلم ومكانة العلماء فى المجتمع فى العصر الغزنوى

عندما نغوص فى أعماق رواية فردقان نجد أنفسنا بين حالتين متناقضتين تتجاذباننا بين الفخر والأسى. من جهة نرتفع فرحا بتوافر العلوم المتنوعة كالطب والفلك والرياضيات والفلسفة و... فنشعر كأننا نحمل تراثا من المعرفة يكاد يتفجر بهاء وعمقا؛ لكننا من جهة أخرى ننكسر ألما لأن العلماء الحاملين لهذه الكنوز لايتمتعون من شأن يناسبهم ولا قدر لهم خاصة عند السلاطين والأمراء. مثلا نرى ابن سينا – ذلك العبقرى – يقيد وراء القضبان وهو مسجون أو نرى أباريحان البيرونى وغيره من العلماء يعيشون فى ظل إهانة السلطان.

يصور لنا يوسف زيدان مجلس الأمير الذى اجتمع فيه العلماء الكبار وكانوا يظنون أن الأمير يريد أن يعلن البيرونى وزيرا له ولكن خاب ظنهم حينما فاجأهم الأمير بإعلانه أنه طوعا لأمر السلطان محمود الغزنوى يريد منهم الترحيل إلى عاصمته"غزنة" من دون إبطاء أو تأخير أو تعلل بأى عذر لأن السلطان يريد أن يتباهى بوجودهم فى قصره (زيدان، ٢٠١٨م : ٧٧)، ربما ظاهر هذه القضية يوهم بأن السلطان محب للعلم والعلماء ولكن حسب بقية القصة التى يقصها يوسف زيدان يتجلى أن هذا الأمر كان هوانا وذلا لهم:

سكت الجميع لحظة ثم كان ابن سينا أول المتحدثين وقد اكتسى صوته بغضب كظيم، وهو يقول للأمير: لا والله، لن أرضى لنفسى الذهاب إلى هناك لتسلية السلطان فى الأمسيات، فهذا عمل القيان والمغنيات والراقصات ولا يليق ابدا بالعلماء. (المصدر نفسه: ٧٨)

ويصير الأمر أكثر وضوحا حينما يسأل الأمير عن البيرونى رأيه فى الرحلة إلى غزنة طاعة لأمر السلطان الغزنوى:

قال البيرونى بلسان يضطرب: لا أدرى يا مولاى، فالسلطان محمود الغزنوى لايعتد بالعلوم التى أشتغل بها بل يرى الرياضيات والفلك وتواريخ الأمم القديمة ليست علوما

نافعة مثل علوم الدين التى يحتفى بها... ومقاطعا له، قال أبو سهل المسيحى: هو لا يحتفى بعلوم الدين بعامة، وانما بالمذهب السـّنى الـذى صار مؤخرا يرفع رايته إرضاء مؤقتا للخليفة العباسـى، ونكاية فى حكم البويهيين ذوى النزعة الشيعية. وهو لايعرف بغير الإسلام السنّى الأشعرى دينا، فماذا سيفعل بمثلى وأنا رجل مسيحى وأشتغل مع الطب بالفلسفة وعلوم الحكمة التى يظنها قرين الكفر. (المصدر نفسه)

فى مكان آخر من الرواية يجرى زيدان تطبيقا خفيا فى الإشارة إلى فقدان الكرامة للعلماء فى ايران وعكسـه فى مصر؛ حينمـا يذكر كيف خرج صاحب مصر من قصره إلى خارج سور المدينة لكى يستقبل ابن الهيثم، وذلک يجرى على لسان ابن سينا نفسه حينمـا كان يفكر بأن يذهب إلى مصر لأنه: فى مصر لن يتهمنى أحد بشـىء، ما دمت مقربا من الأئمة الحاكمين وهم يحترمون العلماء. الحاكم بأمر الله، صاحب مصر، خرج من قصره إلى خارج سـور القاهرة ليستقبل العلامة "ابن الهيثم" الذى جاء من البصرة ملبيا دعوته لزيارة مصر، وهذا تشـريف ما بعده تشريف. ولن أجد مثله هنا ما حييت. (المصدر نفسه: ٣٩)

فالخلاف جلى بين الحكومتين فى مصر وفى ايران؛ بينما كان الخليفة الحاكم بأمر الله الفاطمى يستقبل العالم ابن الهيثم بكل حمو وإكرام، نجد أن العلماء فى الجانب الإيرانى يعانون من الإهمال والاحتقار لأن المحمود الغزنوى:

رجل قاس لايرحم ولا يحترم الحكماء والعلماء ... (المصدر نفسه: ٦٥)

وهذا ليس مجرد فرق فى المعاملة بـل هو فجوة ثقافية بين حكومة تفهم دور العلم وتكرم العلماء وأخرى تسعى إلى هدمه وخزلانه؛ وهكذا تصف لنا الرواية ببراعة كيف تختلف حظوظ العلماء باختلاف الأرض التى يقفون عليها وكيف أن العلم نبات لاينبت إلا فى تربة الإكرام.

إحراق الكتب والمكتبات نموذج للجمود الفكرى

يعد حرق الكتب والمكتبات فى رواية "فردقان" موضوعا شـائقا وعميقا لا يقتصر على واقعية تاريخية فحسـب بل يتحول إلى استعارة قوية عن صراع الأفكار والعنف

ضد المعرفة.

شاهد ابن سينا أو سمع قبل حبسه فى قلعة فردقان حريق مكتبة كبرى. والأسوأ من ذلک إتهامه من قبل الحساد بإحراق المكتبة:

ودخـــل العام الثامن وثلاثمائة على ابن ســـينا، بوجه كئيب. ففى بدايته وبســـبب الاضطراب الذى جرى ببخارى حين قصدها "بكتوزون" بجيشـــه، فهرب منها أميرها الهش "منصور بن نوح بن منصور" خائفا على نفســـه، جرت بالمدينة العامرة بلايا كان منها حريق شب فى مكتبة القصر. ومع أن ابن سينا لم يكن هناک حين اندلعت النار إلا أن حاســـديه وكارهى نبوغه وجدوها فرصة للنيل من الشاب النابه، فاتهموه بإحراق المكتبة وأشاعوا بين العوام أنه فعل ذلک ليكون هو الوحيد الذى اطّلع على ما فيها من كنوز المعرفة. (زيدان، ٢٠١٨م: ١٣١)

وربما هذا المشـــهد أدى إلى مسارعته فى تســـجيل علمه فى كتابه "الشفاء" قبل أن يضيع إلى الأبد حتى وهو فى الســـجن. فيصبح "الشـــفاء" له مكتبته الشـــخصية التى لايستطيع أحد إحراقها.

وفى مشـــهد آخر مؤلم، تنبثق فاجعـــة إحراق الكتب والمكتبـــات؛ عندما يتمكن الغزنويون من السيطرة ويصعدون ســـدّة الحكم. فإلى جانب فظائعهم التى لاتُعد –من وحشـــية ودمار جماعى وإهانة العلماء– ينهالون على ذاكـــرة الأمة وهويّتها بتخريب المكتبات وإتلاف الكتب القيمة والمخطوطات النادرة، محوِّلين رمادها إلى شاهد أبدى على حماقة القوة المتجردة من الحكمة.

يصف زيدان مشهد إحراق الكتب والمخطوطات الذى قام به الغزنويون بقوله:

وجـــاؤوا من المكتبات التـــى خربوها بأحمال لا حصر له مـــن المجلدات ونوادر المخطوطات، وأحرقوها حتى تعالت فوقها ألســـنة اللهب وبلغت عنان الســـماء. وكان الغزنوى يضحک، ومن حوله يهتفون له. ثم اقتادوا فقهاء الشـــيعة متسلســـلين، عارية رؤوسهم، وبعدما قيدوا أيديهم إلى أعناقهم بقماش عمائمهم... . (المصدر نفسه: ٨٤)

ليـــس الحريق مجرد تلف لـــورق بل هو إعدام للذاكـــرة الجماعية؛ لأن الكتب هى ذاكرة الأمم وحضارتها. بإحراقها تحاول السلطة القاضية محو التاريخ وبتر صلة الناس

بجذورهم الفكرية.

كل كتاب محرق يمثل عقلا مبدعا وجهودا إنسانية امتدت لسنوات. الحريق هو إعلان أن حريفة الفكر لا تجادل بالحجة بل باللهب. يظهر هذا الفعل طبيعة السلطة المستبدة من جهتين؛ الأولى خوف الحاكم من الكلمة؛ فالحاكم -علاء الدولة- لايخشى السيف بل يخشى الفكر. الكتاب يبقى و ينتشربينما يزول الحاكم. لذا يصبح الحريق سياسة لتأمين العرش. والثانية الفشل الأخير للسلطة؛ فالحريق هو اعتراف صامت بالفشل. فعجز الحاكم عن محاججة العالم أو دحض أفكاره يدفعه لاتخاذ الحريق كحل أخير.

ولكن رغم أنف السلطة هذا الحريق أنتج المعرفة وقوّاها فنرى فى رواية فردقان أن السجن أنتج الحرية وسجن ابن سينا وفر له العزلة اللازمة لكتابة "الشفاء" فكانت الأوراق المحرقة تخلف وراءها رمادا ينبت عزما جديدا لإعادة البناء.

انعكاس المضامين الاجتماعية فى رواية "فردقان" ليوسف زيدان - دراسة تحليلية

فى إطار دراسة المضامين الاجتماعية والثقافية فى رواية "فردقان" للكاتب يوسف زيدان، تتضح مجموعة من القضايا التى تعكس رؤية المؤلف للمجتمع وطبيعة اهتمامه بالقضايا الاجتماعية. ومن بين هذه القضايا، تحتل مكانة المرأة أهمية خاصة، إذ تُعالج الرواية موضوعها بشكل متأنٍ وموضوعى، ما يجعلها أحد أبرز الأبعاد الاجتماعية التى تناولتها الرواية. وفى الوقت نفسه، تتطرق الرواية إلى قضايا أخرى كبرى تشمل نقد السلطة، الفقر والفوارق الطبقية، التعليم، ومكانة العلماء، مما يوفر للقارئ رؤية متعددة الأبعاد للمجتمع المصوّر.

تتجلى المرأة بأشكال مختلفة فى رواية فردقان؛ مرة نراها كأميرة وأخرى كحبيبة، كما نراها ذكية ومتعلمة وفيلسوفة مرة ورمز للشهوة مرة أخرى. وهذه الأشكال تظهر فى شخصيات كسيدة، روان، ماهتاب وسندس.

قيادة السيدة الديلمية "ست خاتون" لإقليم الرى، حيث كانت زوجة أحد أبرز شخصيات الدولة البويهية من الأمور التى لفتت انتباه كاتب الرواية.

وكانت "الرى" وما حولها، تحت حكم الأميرة الديلمية الفارسية "سيدة" وابنها مجد الدولة ... . (زيدان، ٢٠١٨م: ٣٦-٣٥)

فالمرأة فى صورتها هذه ليست شخصية هامشية بل تكون رمزا للقدرة ولها يد فى توجيه سياسات الدولة أو حتى فى حياة ابن سينا نفسه؛ إذ غيّرت قراره بالرحلة من الرّى حينما طلبته وأرسلته إلى معالجة ابن قريب لها فى قزوين:

كان آنذاك يفكر فى الرحيل إلى بلدة جنوبية مثل "أصفهان" هربا من برودة الطقس فى نواحى الشمال... بيد أن القدر كان يخفى له شيئا آخر، إذ استدعته حاكمة الرى "السيدة" ذات يوم صباحا... ثم طلبت منه الاجتهاد فى علاج قريب لها. (زيدان، ٢٠١٨م: ٣٦)

بالإضافة إلى ذلک، تظهر الشخصيات النسائية فى فصول أخرى من الرواية. من هذه الشخصيات، شخصية "سندس" التى هى رمز للجنس والشهوة وهى أرملة تعيش فى جوار ابن سينا وهو فى السابعة عشرة من عمره. هذه المرأة مغرمة به وولهانة بوجوده. لكن افتتانها لم يكن روحانيا فحسب، بل كان جسديا أيضا. فبعد أن جامعها عدة مرات، وفى ليلة لم يأت فيها إليها، أرسلت إليه رسالة تطلب منه فتح النافذة المطلة على منزلها. وعندما فعل ابن سينا ذلک، شاهد منظرا مثيرا للاشمئزاز؛ رأى "سندس" وهى تمارس الجنس مع رجلين فى وقت واحد. (المصدر نفسه، ١٣٠-١٣٤)

رؤية هذا المشهد أدى إلى انزعاجه من سندس، ولهذا يرفض استقبال الجوارى الحسناوات من الأتراک ويتجنب مجالسة النساء.

«وليلتها أهديت إليه الجارية الآزرية الشهية "بيبى" الّتى كانت مبهجة الطلة، مشرقة القسمات، متقنة القوام، ومع ذلک لم يقبل عليها ابن سينا، لأنّه كان مصدوماً مما رآه من "سندس" ومتجافياً عن مضاجع النساء.» (المصدر نفسه: ٩)

من بين النساء الأخريات المذكورات بشكل بارز فى الرواية تبرز شخصية "روان" وهى رمز للحب العفيف. كانت "روان" جارية. تُعدّ الجوارى أحد أبرز تجليات صورة المرأة فى رواية فردقان. لطالما شكّلت الإماء طبقة اجتماعية مهمة فى المجتمعات القديمة، حيث احتلت حضوراً واسعاً فى معظم الحضارات السابقة. يقدم يوسف زيدان

تصويراً دقيقاً لحياة الجوارى، مع تركيز خاص على دورهن المحورى فى المجتمع آنذاك، دون أن يسهب فى تفاصيل متعلقة بالجوارى الإيرانيات تحديداً. هذا الاهتمام ينبع من المكانة الاجتماعية الكبيرة التى احتلتها الإماء فى تلك الحقبة التاريخية.

يصور يوسف زيدان علاقة ابن سينا بروان بهذا الشكل؛ رجل بويهى (من السلالة البويهية) الذى ساعد ابن سينا فى تزويج ابنه بالفتاة التى أحبها، قال له شاكراً لهذا الفضل:

«زوجتى تقول إنها شعرت بأن روان تعجبك، وهى تستحق بالفعل الإعجاب. هى مولَّدةٌ فى هذا البيت، من أمٍّ أَمَة وأبٍ مملوك، وكلاهما من قبائل جكَل التركية، الشهيرة بحسن نسائها وطيب أخلاقهن، وقد نشأت روان بين بناتى كواحدة منهن، وهى عذراءُ طاهرةٌ لم يمسَّها رجلٌ، ولم تختلط بأهل السُّوء قط، وقد وهبتها لك، لعلِّى أكون قد وفيتُ ببعض فضلك ... .» (زيدان، ٢٠١٨م: ٤٣)

وأخذ يولَدُ فى قلب ابن سينا ميلٌ متزايد نحو روان، حتى قضيا معاً فترات طويلة. وكان هذا الحب عميقاً لدرجة أنه عندما ذكر رئيس السجن اسمها أثناء احتجازه بالقلعة، أثار ذلك عاصفةً من المشاعر فى داخله.

«عندما سمع اسم روان، دُهش ابن سينا وطاشت نظراته حتّى بدا لحظتها مثل طفلٍ سقطت على وجهه أثناء النوم رتيلاءُ، فجمد من فرط الرعب ... لم يستطع ابن سينا الحفاظ على وقاره المعتاد وهدوئه فهبَّ فجأةً واقفاً، مذهولاً، وقد عصفت بصدره هوجاءُ الأعاصير واعتصرت قلبه قبضةٌ من حديد صدئٍ قديم.» (المصدر نفسه: ٣٤)

ومن القضايا الأخرى التى تناولها الكتاب والتى تُبرز مكانة المرأة الإيرانية، رغبة أخت "مهيار" فى تعلّم الطب على يد ابن سينا، وموافقته الإيجابية على هذا الطلب.

قال ابن سينا: «لماذا جاءت أختكِ؟» وقال ماهيار: «تريد أن تتعلم منك يا سيدى. فهى تداوى النساء احتساباً وتريد أن تسألك عن أمورٍ كثيرة وتستفيد من فيض معارفك ... فى اليوم التالى، فى هدأةٍ من النهار قال ابن سينا لماهيار إنه لايمانع فيما تريده أخته، ولكن بعد يومين أو ثلاثة ليكون قد انتهى من المعالجات والتأليف، وصفا ذهنه للمباحثات الطبية النظرية.» (المصدر نفسه: ٧٠_٧١)

يشير يوسف زيدان إلى شخصية "ماهتاب" كرمز للمرأة المثقفة والمهتمة بطلب العلم والمعرفة. تدل هذه الشـــخصية على أنه، على الرغم من العقبات التى كانت تحول دون تعليم البنات فى عصر ابن سينا، كان هناك أشخاص يهتمّون بهذا الأمر ولم يفرّقوا بين أبنائهم الذكور والإناث. فقد كان "ماهيـــار و"ماهتاب" أخا وأختا متعلمين من منطقة شيراز وقد بذل أبوهما كل جهد فى تعليمها وكانت النتيجة هى تخريج بنت متعلمة مثل "ماهتاب" التى استطاعت أن تحير حتى ابن سينا نفسه علاوة على جميع أساتذتها.

وتدخل "ماهيار" فى حوارهما مؤكدا أن أخته كانت تبهر أســـاتذتها فى شـــيراز، بقوة البديهة وبالنهم فى تحصيل العلوم والمعارف. ابتسم ابن سينا وهو يحرك فى الهواء أطراف أصابعه، ويجاوبه قائلا: طبعا، فهى فعلا مبهرة، وقد كنت أظن أننى الوحيد الذى أبهر أساتذته. (زيدان، ٢٠١٨م: ١٠١)

الفقر والفساد مظهرا اجتماعيا فى "فردقان"

من المضامين الإجتماعية الأخرى التى تشاهد فى الرواية هى الفقر وبتبعه الفساد. لاتتوقف رواية "فردقان" عند سرد حبس الفيلسوف ابن سينا، بل تغوص فى الأعماق الاجتماعية لعصره، مسلطة الضوء على الآفة المزدوجة: الفقر والفساد. فالرواية لا ترى الفقر مجرد عوز مادى، بل ســـجنا جماعيا يفقد الإنسان كرامته ويحول دون تحقيق ذاته. فى هذه البيئة القاسية، يصبح الفساد لغة الحياة السائدة وسبيل البقاء الأوحد للكثيرين.

يتجلى هذا التآزر الخطر فى مشاهد مختلفة؛ فساد الحكام واستغلالهم للسلطة لإذلال العلماء وإثراء أنفسهم، وفى المقابل فســـاد الفقراء الذين يدفعهم الجوع والحاجة إلى النفاق والخيانة لضمان قوت يومهم. بهذا، تخلق الرواية حلقة مفزعة: الفقر ينتج الفساد، والفساد بدوره يعمّق جذور الفقر.

تحكـــى الرواية أنه كانت هناك قرية عامرة، جنة صغيرة على الأرض، يطلق عليها اســـم "قرية الزواهر". لم يكن اسمها مصادفة، فقد كانت تزهو بخصبها وخضب أرضها، ويتزايد فيها الخـــير والعطاء، فكانت نموذجا للعيش الكـــريم والازدهار. إلا أن نقمة الطبيعة لاترحم أحدا. فعانت القرية من جفاف قاس ومجاعة مريبة، حتى أصابها القحط

والعوز. وهنا بدأت المأساة الحقيقية. فلما اشتد الجوع والحاجة، ولم يعد لدى الناس ما يطعم أطفالهم، بدأت الأخلاق تتهاشم.

فنرى فى هذه القرية تلجأ كثير من النساء إلى ممارسة الفحشاء والأعمال غير الأخلاقية. لقد حوّل الفقر واليأس بقاء الإنسان إلى مهمة شائكة، تتطاوح فيه القيم مع الحاجة. وبمفارقة قاسية، لم يعد الناس يسمونها "قرية الزواهر"، بل أصبح اسمها على كل لسان "قرية العواهر":

-...ولكن أخبرنى، لماذا ضحكتم بالأمس حينما ذكرت قرية الزواهر.

-هاهاها...لأن هذه القرية هى الأقرب إلى الصحراء، وإلينا، وقد أسماها العرب حين ملكوا هذه النواحى قبل مئات السنين "مرج قرية الأزهار" من كثرة المروج المحيطة بها، المليئة بالزهور البرية. ولكن بعد حين، نقصت مياه النهر فانقطع عنها الريّ، وقلّت الأمطار بلا سبب معلوم، ولهذا جفّت أرضها وطمرتها الرمال فما عادت تزرع. وأهلها صاروا مع مرور الوقت من فقراء المسلمين واليهود والمجوس، ونساؤهم حسناوات، فصرن ملك يمين لمن يستطيع الإنفاق عليهن، وعلى عوائلهن... ولكلّ جندى بهذه القلعة امرأة، يذهب إليها كلّ عشرة أيام فيقضى عندها يوماً وبعض يوم، ويقضى وطره ويعود راضياً. فصار معظم الناس يسمونها "قرية العواهر"، والمهذبون وهم القلة يقولون لها "قرية الزواهر".

-هذا عجيب فعلا، ولا يصح. فإن ملك اليمين يجب شرعا أن تكون فى بيت مالكها.. فكيف....؟

-لا علم لى بهذه الأمور الشرعية يا حكيم، ويمكنك سؤال أبى الزهير عنها حين يأتى، فهو رجل متفقه ويعرف أحكام الدين. أما أنا، فلا أعرف إلا أحوال الرجال وطبائعهم، وأنهم حين يحرمون من النساء يلعب الجن برءوسهم فيتهوّسون، ويكثر فيهم الميل إلى الشغب والعراك.. (المصدر نفسه: ٣٣-٣٤)

فهذه القصة ليست مجرد حكاية محزنة، بل هى اتهام صارخ لنظم اجتماعية تترك ضحاياها بدون حماية، فترغمهم على الاختيار بين الرذيلة والموت، فكيف يمكن إقامة الأخلاق والعفة على بطون خاوية، وأى قيم تبقى حين يغيب القوت؟

تذكرنا الرواية بأن الفساد الأخلاقى قد لايكون سببه الفقر، بل قد يكون نتيجة مرة له. فحين تنهار الأسس المادية، تهتز أركان القيم.

بهذه اللمحة القاسية، ترفض الرواية الحكم بسهولة على أولئک الذين يسقطون، وتضعنا أمام مرآة المسؤولية الجماعية عن كل"عاهرة" ضحت بشيء من إنسانيتها لتنقذ ما تبقى منها.

الفقر والخيانة

من الموضوعات الاجتماعية الأخرى التى تشاهد فى الرواية ويمكن دراسته تحت موضوع الفقر، هو موضوع الخيانة. يبين يوسف زيدان بشكل جلى كيف يؤدى الفقر ومعاناة العيش إلى الخيانة. فتحت ظل الحكم المستبد والأزمات الاقتصادية، تنبثق مشكلة أخلاقية هزيلة، تجعل من الخيانة سُلّما للنجاة وسبيلا للبقاء. ومن بين تلک المشاهد المؤلمة، تبرز خيانة الحارس فى القلعة-الذى يبيع أمانته وواجبه ببضعة دنانير- كنموذج صارخ يجسد التداعيات الوخيمة للفقر، كما يجسد كيف يمكن أن يتحول الإنسان إلى أداة لهدم نفسه ومجتمعه حين تنسدّ أبواب العيش الكريم أمامه.

- لاأدرى يا حكيم، لكن ما يعنينى الآن هو خيانة الزعاق، وأفكر فى قتله عقابا على ما اقترف.
- لاتتسرع، أرجوک. وهل واجهته بهذه الاتهامات قبل الحكم عليه؟
- لا، ولكننى متأكد. وسوف أحاكمه أمامک، لتشير على بما تراه عادلا. هو الآن مقيد بالأغلال فى حجرتى بالساحة الأمامية، بعدما اعتقلناه فجرا فور عودته إلى القلعة، وكان بطيات ثيابه صرة فيها دنانير خراسانية كثيرة. (زيدان، ٢٠١٨م: ١٣٩)

وبعد عدة أسئلة وأجوبة يتبين سبب هذه الخيانة:

مذعورا، بكى"الزعاق" وهو يقول إنه كان يشک فى الأمر، لكنه خادع نفسه طمعا فى المال...(المصدر نفسه)

فالفقر هو الذى يخلق الخائن ويجعل الخيانة خيارا مقبولا. إذا كان ابن سينا محبوسا

فى سـجن الحكومة والجدران، فإن الزعاق محبوس فى سـجن أشد قسوة هو سجن الحاجة والطمع والجوع. وتلك الدنانير التى قدّمت له ليسـت ثمنا لخيانته فحسب، بل هى ثمن لكرامته. هو يبيع شـرف الواجب وعزة النفس أمام شيء تافه. هذا هو الجرح الأعمق الذى تصوره الرواية.

سلوك السلطة مع الناس

يعد التسلسـل الاجتماعى والعلاقات السياسية من أهم المضامين الاجتماعية التى تطرق إليها يوسف زيدان فى رواية "فردقان". تصور الرواية مجتمعا هرميا صارما، يقف فى قمته السـلطان (علاء الدوله) كمصدر أوحد للأمر والنهى. وهذا المستبد فى القمة أمر أن يكون ابن سينا -أعظم عقول العصر- فى السجن والقعر. فالرواية لاتحكى حياة ابن سـينا فى سجنه فقط، بل تبين نقدا جذريا لأسس الحكم المستبد. الرواية ترينا أن المجتمع الذى تكرس فيه السلطة لمصلحة الفرد وتقهر العقل، هو مجتمع مشؤوم لاينتظر إلا الانحدار والزوال.

عـلاوة على صورة كلية للسـلطة فى الرواية، يتجلى هـذا الموضوع كنموذج من اسـتبداد السلطة الحاكمة فى شـخصية "منصور المزدوج" وهو آمر قلعة فردقان. نرى كيفية سلوكه مع خدمه و من تحت أمره:

ظل المزدوج بموضعه سـاكنا بلا حراك، يحدق من عل نحو الطريق المتعرج النحيل المؤدى إلى قلعته المعزولة، وفى جوف رأسـه تدور الوساوس والأفكار بقلق.. بوجل، تقدم إليه واحد من الخدم الواقفين خلفه بخشوع، فأوقد فتيلة القنديل الكبير ثم اقترب من المزدوج وسأله هامسا بلسان يتلعثم إن كان يريد دثارًا، أو شيئًا من الشره أو انتقاء الصقيع المرتقب، أو وجبة العشـاء. لم يرد عليه واكتفى بأن أشـاح بظاهر كفّه اليسرى فتراجع المخادم صافرًا إلى مكانه السابق، يائسًا من النزول عن السطح للاستدفاء... . (زيدان، ٢٠١٨م: ٦)

فى هذا المقطع، يعكـس الكاتب، البنية الاجتماعية للمجتمـع المصوّر من خلال تسلسـل السلطة داخل قلعة فردقان. شخصية "منصور المزدوج" تمثل مركز القوة، حيث

يظهر سيطرته على خدمه وبيئته المحيطة. الخدم يتصرفون بخشوع وطاعة كاملة، مما يعكس العلاقات الاجتماعية القائمة على الانضباط والتراتبية. هذا الانضباط اليومى والالتزام بالأوامر يوضح كيف تتحقق السيطرة فى المجتمع المصوّر، ويعكس نوعية العلاقات بين الحاكم والأتباع. والجدير بالذكر أن هذه العلاقات ليست قائمة على الولاء أو العقيدة، بل على الخوف والبقاء فى مناصبهم وحماية أنفسهم من غضب السلطان.

وصف القلعة، أبراجها، أبوابها السميكة والإجراءات الأمنية المتخذة، يدل على أهمية الحفاظ على السلطة والسيطرة وتنظيم المجتمع وفق قواعد محددة. هذه التفاصيل تمنح القارئ رؤية واضحة عن كيفية توزيع الأدوار داخل المجتمع، وتأثير السلطة على الأفراد. بذلک، يبرز هذا المقطع بعدًا اجتماعيا مهمًا فى الرواية، موفراً فهمًا متعدد الأبعاد لطبيعة المجتمع الذى يصوّره الكاتب.

النتيجة

يوسف زيدان، فى جوهره، ليس مجرد روائى، بل باحث تاريخى متخصص فى مجالات التاريخ، والفلسفة، والطب، والثقافة الإسلامية. وهذا ما ينعكس بوضوح فى أعماله الروائية من خلال اهتمامه الدقيق بالتفاصيل التاريخية والعلمية. فى رواية "فردقان"، ومع التركيز على الأبعاد التاريخية والثقافية والاجتماعية، سعى زيدان إلى تقديم رواية تاريخية واقعية تعكس حقائق السياسة والثقافة والمجتمع الإيرانى خلال العصر الغزنوى. الصورة البارزة التى تعكسها الرواية عن الحقبة الغزنوية تكشف عن التسلسل الهرمى للإدارة الحكومية الإيرانية والنزعة الديكتاتورية التى ميزت معظم الأنظمة الحاكمة فى التاريخ الإيرانى.

فى رواية "فردقان"، يصوَّر المجتمع الإيرانى خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين كفضاء اجتماعى تسوده انعدام الأمن وعدم الاستقرار، خاصة عندما تدخل المصالح السياسية وعلاقات القوة حيز التنفيذ. ويتجلى هذا الأمر بوضوح فى سجن ابن سينا دون محاكمة. ومن بين القضايا البارزة الأخرى المتعلقة بالثقافة والمجتمع الإيرانى والتى

انعكســـت بشـــكل لافت فى الرواية، صورة مفارقة للعالِم بين الإجلال لعلمه والإهانة لحريّته؛ يتعامل يوسف زيدان مع شخصية ابن سينا بمزيج من الإجلال العميق والتوقير الحقيقى، مصورا إياه بأنه قمة شامخة فى سفح التاريخ العلمى والإنسانى. لكنّه، وبحس نقدى ثاقب، لا يغفـــل عن تلك المفارقة الأليمة؛ فالقيم التى يجســـدها العالِم – وهى الحكمة والاســـتقلال الفكرى- تصطدم مع أنظمة السلطة المستبدة التى تسعى لتجريده من مكانته، لتحبس جســـده وهى عاجزة عن حبس عقله. فالرواية، من هذا المنطلق، ليست إلا تأكيدا على أن إجلال العقل يبقى أبديا بينما سلطة المستبدين مآلها الزوال.

ومن المضامين الثقافية الأخرى التى نوقشـــت فى البحـــث، وضعية الصحة العامة فى المجتمع مبينا أن انتشـــار الأمراض كان انعكاســـا لتخلف ثقافى واجتماعى. كما يؤكد مشهد إحراق الكتب والمكتبات والإهانة إلى العلماء، على الجمود الفكرى لدى الغزنويين آنذاك. ومن أبرز القضايا الاجتماعية التى انعكســـت فى هذا العمل الأدبى، مكانة المرأة. تقدّم الرواية رؤية غنية لمكانة المرأة من خلال تصويرها فى أربعة أشكال؛ الأميرة ذات السلطة وتتجسد فى "السيدة" أميرة الرّى، والحبيبة كرمز للسمو العاطفى والروحى وتتجســـد فى"روان" والمرأة كرمز للشـــهوة والجنس وتتجسد فى شخصية "سندس" وأخيرا المرأة العالمة والمثقفة التى تتجسد فى "ماهتاب". وقد كسر هذا التنوع الصورة النمطيـــة الواحدة للمرأة، وأبرز دورها الحضارى وإنســـانيتها فى ظل هيكل المجتمع الذكورى. قد أظهر البحث من خلال دراســـة الرواية أنه كيف يؤدى الفقر إلى الفساد والخيانة مسلطا الضوء على المجتمع الذى يضطر أفراده لبيع كرامتهم. كما كشف عن طبيعة العلاقات السياسية فى ظلّ نظام مستبد.

المصادر والمراجع

إبراهيم، موســـى أبورياش. (٢٠٢٠م). فردقان ليوســـف زيدان رواية ممتعة لاتقول شـــيئا. القاهره: منشورات القدس.

الأعظمى الندوى، عبد الهادى. (٢٠١٧م). "يوســـف زيدان: دراسة فى حياته ورواياته". مجلة التراث مجلة دولية دورية محكمة يصدرها مخبر جمع دراسة وتحقيق مخطوطات المنطقة وغيرها. العدد ٩. صص ٦-٢٣

حموی، یاقوت. (١٩٩٥). معجم البلدان (جلد ٤). بیروت: دار صادر.
زیدان، یوسف. (٢٠١٨م). فردقان. القاهرة: دار الشروق.
حمیدی، عیسی. (١٣٩٤ش). فرهنگ وجامعه ایران در دوره غزنویان. طهران: امیرکبیر.
علویزاده، فرزانه. (١٣٩٣ش). تصویر ایران وایرانی در سفرنامه ژان شاردن. جستارهای نوین ادبی. ٤٧(١٨٥). صص ١٧٠-١٤٧
صفا، ذبیح الله. (١٣٩٧ش). جشن نامه ابن سینا. طهران: سلسله انتشارات انجمن آثار ملی.
محمود، محمد علی. (٢٠٢٠م). یوسف زیدان: الفیلسوف المشاغب بین النقد والنقض. صحیفة المثقف. العدد: ٥٢٢٥.
میرصادقی، جمال. (١٣٨٠ش). عناصر داستانی. طهران: بهمن.
ناجی، محمدرضا. (١٣٨٦ش). فرهنگ وتمدن اسلامی در قلمرو سامانیان. طهران: امیرکبیر.
نامورمطلق، بهمن. (١٣٨٨ش). درآمدی بر تصویرشناسی معرفی یک روش نقد ادبی وهنری در ادبیات تطبیقی. مهر. العدد ١٢.
نجاح، إبراهیم. (٢٠١٨م). الروائی المصری یوسف زیدان "جوانتنامو". مجلة ثقافة مصر.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی